
مدرسة رواق الحنبليات
قسم الدورات العامة
رواق الحنبليات
1440
رجب
شرح كتيب
الافتقار إلى الله لب العبودية
للشيخ
أحمد الصويان
شرح:
سارة بنت محمد حسن

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الرابعة: شرح كتيب الافتقار إلى الله لب العبودية

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله تعالى فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد،

نُكمل علامات الافتقار إلى الله عز وجل:

العلامة الثانية: التعلق بالله عز وجل وبمحبوباته؛ فيقول الشيخ:

"فشعور العبد بفقره وحاجته إلى ربه -عز وجل- يدفعه إلى الاستكانة له والإنابة إليه، ويتعلق قلبه بذكره وحمده والثناء عليه، والتزام مرضاته، والامتثال لمحبوباته. قال بعض الصالحين: "مفاوز الدنيا تُقطع بالأقدام، ومفاوز الآخرة تُقطع بالقلوب".

التعليق:

وهذا الأمر حقيقي، فأنت حين تريد قضاء أي أمر من أمور الدنيا؛ لابد أن تقوم وتتحرك وتسعى لفعله. أما الأمور المتعلقة بالآخرة فمختلفة تماما؛ لأنها متعلقة بقلبك أولًا، وحتى لو أنك قمت بعمل أخروي دون استحضار قلبك لم تكن لتقطع المسافة المطلوبة للآخرة. ولهذا فقد تجد إنسانًا قعيدًا لا يغفل عن ذكر الله فيفوز بالآخرة، ولا يفوز بها إنسان آخر يفعل الخيرات ويسعى ظاهريًا لطلب الآخرة، ولكنه مُراءٍ أو يعمل العمل لنية أخرى غير الظاهرة لنا.

وحتى لو أنك غير مُراءٍ، ولكن قلبك فاسد لا يستشعر العمل، فتقوم إلى الصلاة دون تركيز ودون خشوع ودون استحضار لمعانيها فلم تنل منها ما هو مطلوب لقطع المفاوز إلى الآخرة. ولهذا يقول ابن القيم **"الجنة ترضى منك بأداء الفرائض، والنار تندفع عنك بترك المحرمات، والمحبة لا ترضى منك إلا ببذل الروح"**. فالإنسان بمجرد فعله الفرائض بإخلاصٍ واستحضارٍ للقلب؛ يكون قد قطع الطريق للفوز بالجنة، ويدفع عن نفسه النار بمجرد تركه للمحرمات. ولكن الارتقاء في درجات الجنة رتب أخرى لا تأتي إلا بالمحبة وأن تفعل الشيء بحب وإقبال على الله -عز وجل. فالحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وهذا التضاعف يأتي بالمحبة والإنابة والتوبة والرغبة في الله سبحانه وتعالى وبدرجة إخلاصك وصدقك.

ثم نقل الشيخ عن ابن القيم الكلام التالي:

"تعلُّق القلب بغير الله واشتغاله به والركون إليه؛ عكوف منه على التماثيل التي قامت بقلبه، وهو نظير العكوف على تماثيل الأصنام، ولهذا كان شرك عبّاد الأصنام بالعكوف بقلوبهم وهممهم وإراداتهم على

تماثيلهم، فإذا كان في القلب تماثيل قد ملكته واستعبدته بحيث يكون عاكفاً عليها؛ فهو نظير عكوف الأصنام عليها، ولهذا سماه النبي -صلى الله عليه وسلم- عبداً لها، ودعا عليه بالتعس والنكس".

<u>التعليق:</u>

أولًا: بالنسبة للجزء الأخير "تعس وانتكس" فهو يقصد به دعاء النبي صلى الله عليه وسلم **"تعِس عبدُ الدينارِ، تعِس عبدُ الدرهمِ، تعس عبدُ الخميصةِ، تعس عبدُ الخميلةِ، تعِس وانتكَس وإذا شيكَ فلا انتقشَ".**

البعض يفهم كلام ابن القيم بشكل خاطئ؛ فيتصور أن الزوجة التي تحب زوجها ينطبق عليها حكم من جعلت في قلبها صنم وهي نظير العاكف على حب هذا الصنم فبالتالي هي مشركة. بالرغم من أنه من المفترض رد كلام متشابه العالم إلى محكم كلامه، أو إلى محكم كلام الله عز وجل فإما أن يوافقه فيكون صوابا أو يخالفه فيكون خطأ، بدلًا من الاستسهال وإسقاطه في غير موضعه. فقد أصبحنا بهذا الفهم الخاطئ نرى أُناسًا يتسابقون ويجتهدون في تحقيق أعلى درجات التبلد واللاشعور، لتجد امرأة تقول الحمد لله لأنني لا أحب ابني حب شركي!

حتى وصل الأمر بالمناداة بعدم إظهار حب النبي صلى الله عليه وسلم وعدم زيارة قبره الشريف حتى لا نكون مشركين بالله ولإثبات أن حبنا لله أكبر! ثم نعود لنتشكى من عدم شعورنا بالصلاة وبالعبادات رغم أنك أنت من تقتل شعورك وإحساسك. وقد شرح ابن القيم الفروق بين المحبة الطبيعية والمحبة الشركية في كتاب الروح، وذكر أن محبة الله عز وجل يندرج تحتها محبة ما يحبه الله، ومحبة أولياء الله. بمعنى أن محبة الله عز وجل ملحق بها كل المحبة **"في الله ولله وبالله".** أما المحبة الشركية فيقصد بها المحبة مع التعظيم والتذلل والخضوع والاستسلام. وتلك المشاعر من التعظيم والتذلل والخضوع لا تجوز صرفها لغير الله سبحانه وتعالى. وقد عرّف الشيخ حافظ الحاكم الشرك بأنه: **"إتخاذ العبد غير الله ندًا به مساويًا مضاهٍ".** إذا فالمحبة للزوج أو الصديق أو الابن لا تندرج تحت هذا المفهوم.

إذًا فقد قسم ابن القيم المحبة إلى محبة مع الله ومحبة في الله ومحبة بالله؛ أما المحبة مع الله فقد بينا أنها محبة شركية ومحبة طبيعية. والمحبة الطبيعية تنقسم إلى ثلاث أقسام؛

1- **محبة على طريقة السابقين بالخيرات؛** وهؤلاء حالهم في المحبة بأنهم يحبون الشيء بطبعهم ولكن يستغلونها في طاعة الله لنيل الثواب، وهكذا غالب حالهم. مثل المرأة التي تحب أولادها بفطرة فطرها الله عليها، وفي نفس الوقت تستغل تلك المحبة لتحقيق مقاصد الشريعة؛ فتسعى لتعليمهم وتحفيظهم القرآن وتتابع تأديتهم لفروض الصلاة. أيضًا الرجل الذي يحب الطيب والتطيب، ويستغل هذا في تحقيق مقاصد الشريعة في حب النظافة وإلزام الناس بها في مواطن عدة كالصلاة وتأدية مناسك الحج والذهاب لصلاة الجمعة والعيد وتطيب المرأة لزوجها وغيره. فالأشياء التي تندرج تحت قسم المحبة الطبيعية قد لا تكون من الفروض أو الواجبات ولكنها فقط من المباحات، غير أن السابقين بالخيرات يجعلون منها أعمال لنيل الأجر وتحقيق وجه من أوجه مقاصد الشريعة. مثل امرأة تحب طعام معين وكلما أعدت هذا الطعام تصدقت ببعضه لوجه الله الكريم، فجعلت

من المباح طريقًا للحصول على الأجر، وكذلك شخص يحب الموسيقى لكنه يتركها من أجل رضا الله عز وجل.

2- **محبة على طريقة المقتصدين**؛ بمعنى أنه لا يستغل المباح المحبب لنفسه في نيل الثواب ولكن في نفس الوقت لن يفعل -به أو من أجله- المعاصي. فمثلا إنسان يحب الطعام ولكنه لن يفطر في رمضان، رجل يحب المال ولكنه لن يسرق ليستزيد منها، رجل يحب النساء ولكنه يغض بصره ولا ينظر إلى الحرام. وبهذا فهؤلاء لا يفعلون بتلك المحبة شيئا حراما ولكنهم في نفس الوقت لا يصرفونها لمحبة الله عز وجل ومقاصد شريعته. وهنا يقول ابن القيم بأن لو وصلت تلك المحبة لحد الانشغال والولع بها ومداومة التفكير فيها، فهذا ينقص من إيمان الشخص بقدر تعلقه بها. كشخص ينام ويقوم ويمارس حياته وهو دائم التفكير في شيء ما ويطغى عليه ذلك الشيء. وهذا بالتأكيد لن يجعلك على الأقل تنالي مرتبة السابقين، ولن يكون إيمانك كإيمان هؤلاء الناس الدائمين التفكير في الله عز وجل والمنشغلين بمرضاته. فذلك الانشغال والتعلق المبالغ به بالطبع ينقص من الإيمان وإن كان لا يوجد ذنب أو معصية محددة ومعروفة تأثم عليها. وهذا التعلق قد يؤدي بك إلى حالة نفسية تعرف في الطب النفسي **"بالتعلق المرضي"** الذي يؤذي صاحبه ويؤثر على القلب بكل تأكيد، فلو أن لك صاحبا تحبه لدرجة التعلق المرضي ثم اكتشفت خيانته لك فتخيل مدى تأثير ذلك عليك. إذن فالتعلق المرضي يجعلك دائم العرضة للصدمات. مثال آخر لامرأة تحب أولادها لدرجة التعلق المرضي؛ سيجعلها ذلك دائمة القلق والوسوسة إلى درجة الجدال والمشاجرة بطريقة مبالغ فيها للدفاع عن أبنائها. وهذا التعلق مذموم من جهة أخرى؛ لأن تأثيره على القلب يورث الحزن والكآبة، بمعنى إن كان الشيء الذي أحبه موجودًا؛ إذن فأنا بخير، وإن غاب؛ انطفأ كل شيء.

3- **المحبة على طريقة الظالمين أنفسهم**؛ وهؤلاء يغلب عليهم حب الشيء لدرجة ارتكاب المعاصي. فمثلا شخص يحب المال فيسرق، رجل يحب النساء فيزني. وتلك المحبة تورث الذنوب حتى وإن لم تصل إلى مستوى المحبة الشركية.

وهنا لابد أن ننتبه إلى أننا حتى ولو كنا من القسم الثالث؛ لابد من التوبة والاستمرار فيها حتى وإن تكرر الذنب، فقد جاء عن النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَحْكِي عَن ربِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالى، قَالَ: "أَذنَب عبْدٌ ذَنْبًا فقالَ: اللَّهُمَّ اغفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعالى: أَذْنَبَ عبدِي ذَنْبًا، فَعَلِم أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ ربِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تبارك وتعالى: أَذْنَبَ عبدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفِرُ الذَّنبَ، وَيَأخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَي رَبِّ اغفِرْ لِي ذَنبي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالى: أَذْنَبَ عَبدِي ذَنبًا، فعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنبِ، قد غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَفْعَلْ مَا شَاءَ". فقال النووي تعليقًا على هذا **أن الله سبحانه وتعالى يغفر لعبده إلى ما شاء الله ولا يمل حتى يمل العبد نفسه.**

والإنسان متأرجح في محبته بين الثلاثة أقسام ودوره أن يستغل أعلى قدر ممكن وأكبر قدر من المحابّ التي يمكنه تصريفها وفق رضا الله عز وجل ومقصد شريعته. ويظل في جهاد حتى يوازن ويعوض المحابّ التي يضعف أمامها وتجعله في طريق الظالمين أنفسهم. فيبقى الجهاد حتى الممات، والمهم أن تموت وأنت على الطريق ورب العزة كريم يعاملنا بكرمه فيعطينا أجرنا كاملًا حتى وإن لم نصل للغاية النهائية، ولهذا يقول رب العزة " **إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ".**

وهناك بعض الأسئلة التي دائمًا ما تُطرح ويختلط الحكم فيها على الناس:

- **هل من الممكن أن تجتمع المحبة الطبيعية مع المحبة الشرعية؟** فعلى سبيل المثال لو أنني أحب الصلاة بطبعي؛ إذن فهي مندرجة تحت المحبة الطبيعية، فهل عند تأديتها آخذ أجرها أم أن الأجر يذهب لأنها من المحبات الطبيعية لدي؟

بالتأكيد ستؤجر عليها؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: **"جُعلت قرة عيني في الصلاة"** وكان يقول أيضًا: **"أرحنا بها يا بلال".** فمن الخطأ أن نظن أن المجاهد في الأعمال له أجر أكبر من الذي يحب العمل محبة طبيعية، أو أن الذي يمتلك المحبة الطبيعية لا أجر له من الأساس طالما أنه لا يجاهد لفعل العمل.

- **وعلى النقيض هل من الممكن كره الشيء بالطبع مع محبته لله عز وجل؟**

والإجابة: نعم؛ فقد تكره الاستيقاظ من النوم لكنك ستقوم لتأدية صلاة الفجر، ولكن أيضًا ستأخذ الأجر مع كراهتك واستثقالك للعمل.

الخلاصة: إذا أحببت الشيء الذي يحبه الله وبسره الله لك وأعانك على فعله؛ فاحمد الله على ذلك، وإذا شعرت بالمشقة من تأدية طاعة معينة لله عزو وجل؛ فاحمد الله أيضًا لأنك بالتأكيد ستأخذ أجر.

يقول الله تعالى: "كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ" فهل معنى هذا أننا لن نأخذ أجر خروجنا للقتال؟ لا، بل سنأخذ الأجر كاملًا إن شاء الله.

- **هل وقوع المرأة في حب رجل ما حرام؟**

لا يوجد حب حرام؛ فالمحبة شعور خارج عن إرادتنا لا نتحكم فيه، ولكن ما يترتب على هذا الشعور هو الذي يندرج تحت حكم حرام وحلال، فقد تحبين شخصًا لصفاته فقط دون أي شيء أكثر من ذلك؛ فهنا لا يكون عليكِ شيء، ولكن قد يدفعك هذا الحب للتفكير فيه بشهوة أو الخروج معه أو نحو ذلك من الأشياء والتي من المؤكد تحريمها. إذن فنحن لن نأثم على الحب ولكننا نأثم على ما ترتب عليه إن كان مُحرمًا. والحل لهذه المشكلة أن تشغل نفسك دائمًا حتى لا تقع في محظور.

- **هل من الممكن أن يحب الرجل أكثر من واحدة؟**

نعم، من الممكن أن يحب الرجل أكثر من امرأة. هذا هو الواقع الفعلي وفطرة الرجل الذي فطره الله عليها بعيدًا عن القصص والروايات. ولا يوجد أي علاقة بين محبته لامرأة أخرى غير زوجته وكراهيته لزوجته، ولا يعني هذا مطلقًا أنه توقف عن حب زوجته. فمبدأ القلب "لا يسع إلا واحد" ينطبق على المرأة فقط ولا يتماشى مع طبيعة الرجل.